المسيرة
النجوى
Issue No.1408 Febraury-11-2013

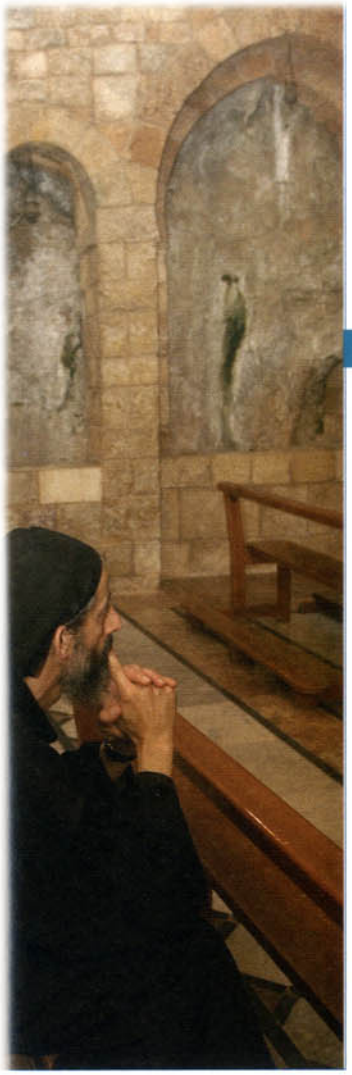

الروحانيّة المارونيّة
اتضاع وتوبة وتأمل

بعض التساؤلات اللا بدّ منها قبل الكلام على الروحانيّة المارونيّة.
ماذا تعني الصفة "مارونيّة"؟ هل هي واضحة الخطوط والمعالم والمعطيات في أبعادها التاريخيّة والعقائديّة والعمليّة؟ ممّا لا شكّ فيه أنّنا ما زلنا في حاجة كبيرة إلى البحث والتدقيق والكتابة في مجال وضع تاريخ القدّيس مارون والمارونيّة والموارنة بطريقة متكاملة بمقدار ما تتيح لنا المعطيات المتوافرة.
ماذا نعني بكلمة «روحانيّة»؟ كيف يمكن تحديدها؟ ما هي مقوّماتها؟ قد يبدو الجواب سهلاً وبسيطاً، ولكن للكلمة تشعّبات عدّة لا بدّ من تبيّنها بكلّ أبعادها.

الأب أيوب شهوان

تشتقّ المفردة «روحانيّة» من كلمة «روح» كصفة. لا نجدها في المعاجم العربيّة كاسْم، الأمر الذي يدلّ على أنّها حديثة العهد في الاستعمال، وقد تكون تعريبًا للكلمة الأوروبّيّة spiritualità، spiritualityy، spiritualité، التي تتضمّن معنى المبادئ والأسس التي إليها يرتكز سلوك بحسب متطلّبات «الروح». ولكن ورد استعمال لهذه المفردة في الأدب العربيّ المسيحيّ في العهود الوسطى لنقل كلمة «رُوحُنُوتًا» (رُوحُنُوثًا) السريانيّة التي تدلّ على حال سامية يصل إليها المؤمن عندما يضحي «مسكنًا للروح القدس»، بعد أن يكون قد عاش النّسك والزّهد والعبادة بالروح والحقّ بهدف التنقّي والتطهّر من العيوب والخطايا والميول السيّئة التي تقهر نفس المؤمن وتزعزع العيش مع الله ومع القريب.

لكن لنبسّط الأمور، ولنقُلْ: «الروحانيّة المارونيّة» هي أمرٌ نحسّ به في أعماقنا، ونعيشه في كياننا، ونتعلّق به بكلّ قلوبنا؛ بالتالي نحن نعلم ماذا تعني عبارة «الروحانيّة المارونيّة»، ليس في حدّ ذاتها فقط، بل أيضًا بالنسبة إلى المارونيّ الذي يعشقها ويعيشها ويغتذي منها.

لنتبيّن بدايةً معنى عبارة «الروحانيّة المسيحيّة».

تقوم الروحانيّة المسيحيّة على عيش الإيمان المسيحيّ المتجذّر في شخص يسوع المسيح وفي تعليمه ومثله، والارتقاء بالتالي إلى متطلّبات الروح. الإيمان بالمسيح هو الجواب الذي يعطيه الإنسان للربّ الذي يدعوه إلى قبول الخلاص الذي تحقّق بيسوع المسيح الذي تجسّد ومات وقام من أجلنا، ويجذبه إليه ليكون معه، ويكمّل بروحه القدّوس الذي يحلّ في المؤمن ويحوّله هيكلاً مقدّسًا لسكنى الله؛ فيروح هذا المؤمن يتشبّه بالربّ يسوع، فيُميت الإنسانَ القديمَ البالي بالخطيئة، والقابعَ في ظلال الموت والظلمة، ليقوم إنسانًا محرَّرًا من سلطان الشرّ، إنسانًا متجدّدًا وجديدًا، إذ يستعيد صورةَ الله الحسنةَ التي كانت له في البدء، وصولاً إلى القدرة على أن يعيش في شراكة في ما هو لله.

استنادًا إلى ما تقدّم، يضحي المؤمنُ روحانيًّا، وسلوكه روحانيًّا، وأعماله روحانيّة، وهذا كلّه من ثمار الروح القدس الذي يحلّ فيه. هذه بالإيجاز هي الروحانيّة المسيحيّة التي هي روحانيّةُ أيِّ مسيحيّ في المطلق.

ولكنّ الإيمان المسيحيّ ذو بُعْد جماعيّ يطبع روحانيّة الفرد المؤمن؛ فالإيمان ينتج من سماع الجماعة المؤمنة والعابدة تعلن عملَ الله الخلاصيَّ بالربّ يسوع، ومن قبول سرّ العماد المقدّس في الجماعة، والاشتراك في جسد الربّ ودمه في الجماعة. ونضيف أيضًا إنّ الروح الذي يتلقّاه المؤمن هو روح الربّ الحاضر في الجماعة والحالّ فيها، واهبًا إيّاها الحكمة والمعرفة والقوّة والفعاليّة. بذلك تضحي أعمال المؤمن وخياراته وأفكاره روحانيّةً. يؤدّي كلّ هذا إلى أن تتجسّد الروحانيّة المسيحيّة التي يعيشها المؤمن من ضمن الجماعة المؤمنة، فتظهر أمام أعين العالم روحانيّةً لاهوتيّةً ومسلكيّةً تميّز المؤمنين بالمسيح، وتصبح شهادةً لمن هم في الخارج، وعلّة إيمان لكثيرين.

ولكنّ هذه الروحانيّة المسيحيّة ترتبط بتعابير متنوّعة ومختلفة، بتنوّع المعطيات الجغرافيّة والتاريخيّة والثقافيّة والاجتماعيّة التي تتكوّن فيها واختلافها، فتنشأ روحانيّات خاصّة بهذه أو تلك

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"

المسيرة
النجوى
Issue No.1408 Febraury-11-2013

من الجماعات أو الكنائس، ومن بينها «الروحانيّة المارونيّة».

ليس بالسهل التكلّم على «الروحانيّة المارونيّة» لأنّ الأمر يفترض وجود أبحاث معمّقة في مجالات عدّة من تاريخ الموارنة وحياتهم، خصوصًا أنّ الروحانيّة عيشٌ يتطوّر في استمرار، ولا يمكن بالتالي التعبير عنه بطريقة موضوعيّة إلاّ من خلال تبيُّن هذا التطوّر، واستنادًا إلى الشواهد والمراجع المكتوبة التي تفيد بمسار هذا الأخير. ينبغي أن نعلم أنّ الروحانيّة يمثّلها أفراد أو جماعات يعيشونها، فينبغي التعرّف الى هؤلاء أيضًا، والى ما بقي من آثارهم للتمكّن من رسم ملامح روحانيّتهم. لذلك، وعلى رغم ما تحقّق حتّى الآن في مجال الأبحاث المارونيّة التاريخيّة والليتورجيّة والفنّيّة والموسيقيّة وغيرها، ما زلنا في حاجة إلى كشف اللثام عن الكثير من النقاط والحقبات التي ما زالت غامضة من تاريخ الموارنة ومكوّناته. لأجل ذلك ينبغي أن نحصر كلامنا على «الروحانيّة المارونيّة» في عناصر أساسيّة محدّدة، ألا وهي:

– **أوّلاً** الليتورجيا التي تناقلتها الأجيال مكتوبة أو شفهيّة، والتي تشكّل قراءة رائعة للكتاب المقدّس وتفسيرًا له، وتزخر بأهمّ المعطيات اللاهوتيّة والتعليميّة والخلقيّة؛

– **ثانيًا** الحياة النسكيّة والرهبانيّة، التي تعبّر تعبيرًا صافيًا عن أحد وجوه الروحانيّة المارونيّة؛

– **ثالثًا** الكتاب المقدس؛

– **رابعًا** قدّيسو الكنيسة المارونيّة وقدّيساتها، وشهداؤها وشهيداتُها، مجسّدو هذه الروحانيّة بامتياز؛

المدوّنات التاريخيّة، وغيرها.

لن نتمكّن من تفصيل هذه العناصر كلّها، لذا سنكتفي ببعضها.

تبقى الليتورجيّا المارونيّة في أدبها المتنوّع المصدرَ الأهمَّ والأوّلَ لاستخراج أسس الروحانيّة المارونيّة وتطوّرها عبر التاريخ، لأنّها التعبير الصحيح عن عيش الموارنة لسرّ الخلاص المقدّس الذي حقّقه الله الآبُ بالابن الحبيب يسوع المسيح، ويتواصل بقوّة الروح القدس في أبناء الكنيسة. تتميّز الليتورجيّا المارونيّة بأنّها على ارتباط وثيق بحياة الماروني، تواكبه من مولده وحتّى مماته، وحتّى بعد مماته، غارسةً في حياته كلّها بذار الحياة المقدّسة التي من عند الربّ، وموجّهةً مسيرته الروحيّة نحو الشركة التامّة في سرّ الخلاص. لذلك هي تعكس المفاهيم والمبادئ الأساسيّة التي بها جسّد الموارنة تعلّقهم بالابن الحبيب يسوع، وتوقهم إلى أن يكونوا أبدًا في ما هو لله، وعليها أرسوا طريقة عيشهم لإيمانهم، وعبّروا عنه بسلوكهم، وهذا ما نتبيّنه من نصوصها الرائعة والغنيّة، ومن رموزها المتنوّعة والكثيرة. وتبدو الليتورجيّا المارونيّة للمتأمّل في تكوُّنها وتطوّرها ونموّها وترسّخها أنّها نتاج جماعيّ حقّقته الجماعة المارونيّة العابدة والضارعة والمصليّة، والمستغيثة والصارخة والمتأوّهة، والمسبّحة والممجّدة والشاكرة. إنّها في الحقيقة صورة عن حياة الموارنة مع الله ومع الإنسان.

فالموارنة يؤلّفون أساسًا كنيسة صغيرة، من حيث العدد ومن حيث الامتداد الجغرافيّ، تميّزت بمركزيّة قويّة واضحة المعالم، فشكّلت كيانًا متماسكًا ترأسه البطريرك، وإلى جانبه عدد من الأساقفة ثمّ الكهنة، وكان الرهبان والنسّاك في هذا الكيان طاقةً روحيّةً دفّاقة، فاعلةً وحاسمة.

لعبت الليتورجيّا في هذه الكنيسة دورًا حاسمًا في خلق التماسك العضويّ بين الموارنة، ومدّتهم بروحانيّة هي في آن معًا إرثُهم وتراثُهم، غناهُم وغذاؤهم، من جهة،

الروحانيّة المارونيّة" هي أمرٌ نحس به في أعماقنا، ونعيشه في كياننا، ونتعلق به بكل قلوبنا

تبدو الليتورجيّا المارونيّة للمتأمل في تكونها وتطورها ونموها وترسخها أنها نتاج جماعيّ حققته الجماعة المارونية العابدة والضارعة والمصلية

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"

المسيرة
النجوى
Issue No.1408 Febraury-11-2013

ولكنّها أيضًا صُنْعُهم ونتاجُهم، ونتيجةُ تقواهم وعبادتهم، من جهة أخرى. هكذا إذًا ارتوى الموارنة من الروحانيّة المسيحيّة عمومًا، والإنطاكيّة خصوصًا، ولكنّهم في الوقت ذاته أنموها ووسّعوا مداها وحلّقوا بها إلى عالم الروح.

لقد عاش الموارنة إذًا روحانيّةً متأصّلةً في التراث الإنطاكيّ الرسوليّ والآبائيّ والنسكيّ، لكنّهم طبعوا ليتورجيّتَهم بطابعهم الخاصّ الذي ميّزهم عن الكثير من الكنائس الشقيقة، القريبة منها والبعيدة، فجاءت هذه الليتورجيّا، نصوصًا ورموزًا وروحيّةً، تعبيرًا واضحًا عن فهمهم لسرّ التجسّد، وعيشهم لسرّ الفداء، وتأمّلهم الدائم في كلام الله، ممّا أتاح لهم الغوصَ في سرّ تدبير الله الخلاصيّ، ومن ثَمَّ الالتزامَ بمتطلّباته والسلوكَ وَفْقَها، مكوّنين بذات الفعل روحانيّةً متجذّرة في اللاهوت ومندفعةً أبدًا نحو الشهادة.

الليتورجيّا المارونيّة هي كما هم، بساطةٌ في التعبير، وبعدٌ عن الكلام المنمّق وتعقيداته الأدبيّة، وعن التنظيرات الفكريّة واللاهوتيّة، لأنّها قبل كلّ شيء هذيذٌ روحانيٌّ بكلام الله، وترداد متواصل له. إنّها ليتورجيّة مؤمنين يصلّون، فتنشأ من صلاتهم ليتورجيّة، هي صورةٌ عن نقاوة قلبهم، وطيب نواياهم، وحسن تفكيرهم، وصفاء معتقدهم؛ لذا هي ليتورجيّة نابعة من القلب والروح، وليست نتاجَ دراسات وأبحاث وصروح علم. في هذه الليتورجيّة البسيطة والسامية في آنٍ معًا، يتجلّى مجدُ الله وعظمتُه، لأنّ الله يتمجّد ويتعظّم في البساطة والرقّة، في نقاوة القلب وفي قداسة محبّيه وعابديه.

هذا المخزون الليتورجيّ العظيم عليه بنى الموارنةُ روحانيّتَهم، وأكثروا في الوقت عينه من إغنائه لشدّة تعلّقهم بعبادة الله وبتمجيده، ما زال حتّى الساعة في حاجة إلى عمّال ينكبّون على استخراجه من خزائن المحفوظات، ونشره بطريقة منهجيّة وعلميّة، من أجل التعريف بغناه، وهو أعظم كنوز هذه الكنيسة، من أجل إبراز عناصره الروحيّة الثمينة التي شكّلت روحانيّةَ الموارنة، والتي كانت وستبقى، ليس فقط فخرَهم، بل أيضًا وخصوصًا حصنَهم الحصينَ في مسيرتهم البطوليّة على درب الآلام والصليب والقيامة.

إنّ اختبارات الموارنة الحياتيّة الصعبة، والصعبة جدًّا، هي صورةٌ رائعةٌ عن وجه المسيح المتواضع والمتألّم؛ فلقد مرّوا في ظروف تاريخيّة قاسية جدًّا، جعلتهم يعيشون إخلاء الذات على مثال المسيح يسوع، محدِّقين أبدًا في صليب سيّدهم، فانطبعت روحانيّتهم بالتأمّل بشجاعة وشهامة وبساطة في آنٍ معًا في آلام الربّ وفي آلامهم، من دون نحيب أو نُواح أو نَدْب أو رثاء، ونَحَوا في اتّجاه التقشّف والزّهد، فمارسوا بسخاء الإماتات وأعمالَ التوبة، متجرّدين عن شهوة تكديس الكنوز الأرضيّة، وما يرافقها من أطماع، وما يتبعها من انحرافات مبدئيّة، دينيّة وأخلاقيّة ومسلكيّة؛ ومَن كانت أهراؤه تمتلئ لم يكن ينسى أخاه الذي في العوز والفاقة، بل كان يمارس أعمال الرحمة والمحبّة الأخويّة. تَظهرُ هذه الروحُ في بساطة عيش الموارنة، وفي بساطة شكل كنائسهم، وفي بساطة احتفالاتهم الليتورجيّة الخالية من مظاهر الأبّهة المادّيّة، كلّ ذلك لأنّ روحانيّتهم هي أفضل إكرام وتمجيد وتسبيح لسيّدهم يسوع المسيح المنتصر على الموت بالقيامة. هذا يفسّر السبب الذي لأجله تعطي الليتورجيّا المارونيّة في احتفالاتها ونصوصها ورموزها أهمّيّةً كبرى لسرّ ابن الله المتأنّس، الذي تواضع، وأطاع، وقَبِلَ بأن يتألّم، خصوصًا في صلوات الصوم الكبير، وأسبوع الآلام، كما أيضًا في الزمن العاديّ من الدورة الطقسيّة. لذلك أضحت الروحانيّة المارونيّة مُشبَعةً بروح الاتضاع والانسحاق، على مثال الربّ يسوع، وبروح التوبة والتكفير على مثال الابن الضالّ والخاطئة والعشّار، وبروح التأمّل والهذيذ مثل مَن يُشغَفُ بالفادي الإلهيّ الحبيب، فيروح يحلّق في حبّه حتّى يلقاه، ويشاركه في ما قاساه من آلام حتّى الموت على الصليب. إنّها حقًّا ذروة الروحانيّة المارونيّة.

إذا كانت الليتورجيّا هي الينبوع الذي

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"

المسيرة
النجوى
Issue No.1408 Febraury-11-2013

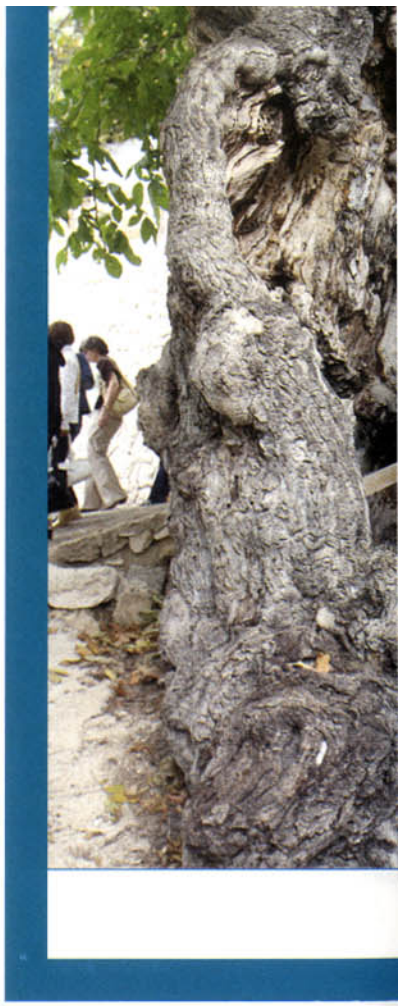

منه تتدفّق الروحانيّة المارونيّة في شكل خاصّ، فإنّ الحياة الرهبانيّة والنسكيّة الزاهدة هي المثال الأسمى الذي إليه تطمح. كلّنا نعلم أنّ المارونيّة والحياة النسكيّة والرُهبانيّة هما مترابطان ترابطًا عضويًّا قويًّا؛ فكلّما نمت الحياة الرهبانيّة وانتعشت وازدهرت، كلّما حصل الأمر ذاته للروحانيّة المارونيّة، والعكس صحيح. إنّ قراءةً سريعةً لتاريخ الكنيسة المارونيّة ولنشأة الحياة النسكيّة والرهبانيّة فيها، كياناً في قلب الكنيسة له ميزته الخاصّة، يظهر بوضوح إسهامَ الحياة الرهبانيّة الكبيرَ في تكوين الروحانيّة المارونيّة.

ويحسن هنا أن نذكّر بقول شهير لعظيم من الكنيسة الأرثوذكسيّة في لبنان، هوّ شارل مالك، جاء فيه: «هؤلاء الرهبان والراهبات، وعددهم بالمئات، يعملون ليلَ نهار، في صمت وفي غير ضوضاء، بتكريس للنفس لا مثيلَ له، تكريس لا يقدّره إلاّ مَن عرفه عن كثب، يعملون في خدمة الفكر والأخلاق، في خدمة العلم والمجتمع، في خدمة البؤساء والضالّين والمحتاجين، في خدمة المسيح وكنيسته، في خدمة لبنان، كلّ لبنان. إنّ ظاهرة الرهبانيّات المارونيّة ظاهرة من أروع الظاهرات في لبنان، بل في الكنيسة المسيحيّة على العموم، ومن أعمقها وأشدّها أثرًا على مجرى التاريخ».[1] ونضيف إنّهم ذوو أثرٍ كبيرٍ وحاسمٍ في تواصل إغناء الروحانيّة المارونيّة.

ممّا لا شكّ فيه أنّ الروحانيّة المارونيّةهي روحانيّة مؤسَّسة على الكتاب المقدّس في شكل عامّ، وعلى العهد الجديد في شكل خاصّ، لا بل قُلْ على المسيح يسوع الربّ بالذات. لقد أوردنا أعلاه أنّ الروحانيّة المارونيّة هي ليتورجيّة بامتياز، ممّا يعني أنّها بالفعل ذاته هيَ مشبعة من الكتاب المقدّس، تستلّ منه كلّ معطياتها اللاهوتيّة الجوهريّة، وتستوحي منه صُوَرَها الأدبيّة الرائعة، محوِّلةً إيّاه مدرسة حياة لا أبهى ولا أجمل للارتقاء في عالم الروح. وإذا عرضنا صلوات الكنيسة المارونيّة التي صاغها أدباؤها وشعراؤها القدّيسون في اللغة السريانيّة في الأساس، وتأمّلنا في مكنوناتها وفي ما تكتنزه من غنى إستثنائيّ فريد، والتي نُقل الكثير منها إلى العربيّة لدوافع ليتورجيّة ورعويّة، لَتبيّن لنا أنّها صلواتٌ مميّزة بعمقها البيبليّ، وواسعة الآفاق بمداها الإنسانيّ، تخلب قلبَ مَن يتلوها أو يُنشدها، وتحلق به عاليًا إلى أعلى مراتب الروحانيّة التي إليها يطمح العابدون بالروح والحقّ.

إنّ الروحانيّة المارونيّة هي روحانيّة بيبليّةوليتورجيّة ونسكيّة، ولكنّها أيضًارسالةيشهدُالموارنةُ من خلالهاعلى غنى مراحم الله، من جهة، وعلى سموّ مَن أضحى منهم روحانيًّا، وبالتالي مسكنًا للروح القدس ومقامًا له. إنّها روحانيّةٌ مشبعة بالتأمّل بالكلمة المتجسّد، وبالتحديق إلى يسوع المصلوب، ولكن أيضًا بالهتاف ليسوع القائم من الموت. «إنّها تراث روحيّ يشدّ المواركةَ إلى الإنجيل»[2]. إنّها روحانيّةٌ يعيشها الموارنةُ ويجسّدونها على خطى أبيهم القدّيس مارون، الأمر الذي جعلهم يحفظون إيمانهم بتقوى وشجاعة، وينصرفون انصرافًا كبيرًا للعبادة والصلاة، لذلك لم يبرحوا يمثّلون عنصر تجدُّد وتحرُّر وإبداعٍ في هذا الشرق.

* أستاذ مادة الكتاب المقدس
في جامعة الروح القدس الكسليك

١–شارل مالك، رسالتان الى الموارنة، جامعة الروح القدس، الكسليك ٢٠١٠ ص ٢٨.
٢–الأباتي بولس نعمان، «المارونية حتى سنة ١٩٤٣»، محاضرة ألقيت سنة ١٩٧٤.

الليتورجيا المارونيّة هي كما هم، بساطةٌ في التعبير، وبعدٌ عن الكلام المنمّق وتعقيداته الادبيّة، وعن التنظيرات الفكريّة واللاهوتيّة، لانّها قبل كلّ شيء هذيذٌ روحانيٌّ بكلام الله

روحانيّتهم هي افضل اكرام وتمجيد وتسبيح لسيّدهم يسوع المسيح المنتصر على الموت بالقيامة

Select info S.A.L.
"Only Your Selected Information"